قال رحمه الله تعالى:

[فصل (وفاته ﷺ) : فأقام بها بقية ذي الحجة والمحرم وصفر ، ثم ابتدأ به ﷺ وجعه في بيت ميمونة يوم خميس ، وكان وجعاً في رأسه الكريم ، وكان أكثر ما يعتريه الصداع ﷺ ، فجعل مع هذا يدور على نسائه حتى شق عليه ، فاستأذنهن أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذنَّ له ، فمكث وجِعاً اثني عشر يوماً . وقيل : أربعة عشر يوماً . والصديق رضي الله عنه يصلي بالناس بنصه ﷺ عليه ، واستثنائه له من جيش أسامة الذي كان قد جهزه ﷺ إلى الشام لغزو الروم . فلما حصل الوجع ، تربصوا لينظروا ما يكون من أمره ﷺ، وقد صلى ﷺ خلف الصديق جالساً، وقبض ﷺ ضحى يوم الاثنين من ربيع الأول ، فالمشهور أنه الثاني عشر منه ، وقيل مستهله . وقيل: ثانية، وقيل : غير ذلك] .

****

هذا الفصل عقده المصنف رحمه الله تعالى لذكر نبأ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ذلك الحادث الجلل والفاجعة العظمى والمصيبة الكبرى التي هي أكبر المصائب ، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول لصحبه الكرام رضي الله عنهم : ((إِذَا أُصِيبَ أَحَدُكُمْ بِمُصِيبَةٍ، فَلْيَذْكُرْ مُصِيبَتَهُ بِي، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمَصَائِبِ)) . فأعظم المصائب وأجلُّها وأكبرها المصاب بفقْد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وموت سيد ولد آدم وخير عباد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وكانت هذه الوفاة بعد حياة حافلة بالنصرة لدين الله والدعوة إلى دينه ﷻ وإبلاغ الدين البلاغ المبين كما أمره الله ﷻ بذلك ، فما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شرًّا إلا حذرها منه ، فأقام الحجة وأبان المحجة وأوضح السبيل وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ،

وكان نبياً نصوحاً معلماً رحيماً رفيقاً مشفقاً داعياً إلى صراط ربّه المستقيم ، مجاهداً في سبيل الله إلى آخر لحظة من حياته ، وكان بنفسه عليه الصلاة والسلام يخرج مع كتائب الجهاد وأنصار دين الله تبارك وتعالى يحمل سلاحه ويركب فرسه ويُقاتل نُصرة لدينه ، وأُصيب عليه الصلاة والسلام بأنواع الأذى فصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، وشهِد مشاهد عظام مرت معنا نُصرةً لدين الله بدءً من غزوة بدر الكبرى التي كانت فتحاً ونصراً للمؤمنين وإرغاما للكافرين وتساقطت فيها رؤوس عدد من رؤوس الكفر وأعمدته وكان فيها إضعافاً وإيهاناً للمشركين . ولما أرادوا الانتقام في غزوة أحد أذلهم الله ، ونصر أولياءه وعباده المتقين بعد أن أخذ المسلمون درساً نافعاً لهم في خطورة المخالفة . ولما أرادوا كذلك في غزوة الأحزاب القضاء على بيضة الإسلام والإجهاز عليه وقطع دابر المسلمين بزعمهم ردَّهم الله ﷻ بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وبشَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام أنهم بعد اليوم يغزوهم ولا يغزون المسلمين . ثم توالت الفتوحات والنصر والتأييد من ربّ الأرض والسماوات إلى أن جاء الفتح المبين ، فتح مكة بلد الله الحرام وطُهِرت من رِجز الجاهلية ، ثم يليها غزوة حنين وحصار الطائف وغزوة تبوك التي كانت خاتمة الغزوات التي شهدها نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام بنفسه ، ثم حجّ ﷺحجة الوداع ودخل بلد الله الحرام وهو طاهر مُطهر من رجز الجاهلية وأنواع ضلالهم ومعه الآلاف من عباد الله يهنئون بالحج مع رسول الله ﷺ وتقرُ عيونهم بصحبته عليه الصلاة والسلام وأيضا يتعلمون من هديه ويأخذون عنه مناسك الحج كما قال لهم : ((لتأخذوا عني مناسككم)) .

وكان عليه الصلاة والسلام في حجه ذلك يعطيهم مؤشرات بدنو أجله وقُرب منيته وتوديعه لهم صلوات الله وسلامه عليه في قوله : ((لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا)) . وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة تأتي نصوص كثيرة تنذر بهذه المصيبة العظيمة والنبأ العظيم وهو نبأ موت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

ولهذا تجد في القرآن آيات عامة تقرر هذا المعنى كقوله ﷻ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] ، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] ، وتأتي آيات مصرّحة في الباب ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ

أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] ؛ فجاءت هذه الآيات مصرحة ومنذرة ومشعِرة بهذا النبأ والمصاب الجلل فقْد النبي الكريم أو موت النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ولكن مع هول المصاب قد تذهب هذه الآيات عن الذهن ، ولهذا سيأتي معنا لما تلا أبو بكر ﷺ هذه الآية ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ كأن الناس يسمعونها لأول مرّة ، وكأنّها ذلك اليوم نزلت ، وكأنهم لم يتلوها قبل اليوم، وأصبحت ذلك اليوم تتلى في المدينة في كل مكان .

وكذلك جاء عنه عليه الصلاة والسلام أحاديث عديدة مثل قوله : ((لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا)) ، وكذلك ما جاء في حديث فاطمة في الصحيح أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لها : ((إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي القُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي العَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلاَ أُرَاهُ إِلَّا حَضَرَ أَجَلِي)) . وفي الصحيحينعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى المِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ» فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ المخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ)) .

الشاهد أن هذا النبأ جاءت أمور قبله توطئ له وتُنذر بهذا النبأ العظيم والمصاب الجلل الذي هو أكبر المصائب وأعظمها .

قال الإمام بن كثير رحمه الله تعالى : ((**فأقام بها ﷺ بقية ذي الحجة والمحرم وصفراً**)) ؛ لما رجع إلى المدينة بقي فيها بقية ذي الحجة ومحرم من السنة الحادية عشرة وأيضاً صفر من السنة الحادية عشرة ، وفي آخر شهر صفر بدأه عليه الصلاة والسلام الوجع واشتد عليه ((**في بيت ميمونة زوجه رضي الله عنها في يوم خميس ، وكان وجعاً في رأسه الكريم ﷺ ، وكثيراً ما كان يعتريه الصداع**)) ؛ بدأ المرض يشتد بالرسول عليه الصلاة والسلام واستمر المرض في شدته إلى أن كانت وفاته عليه الصلاة والسلام ، قيل اثنا عشر يوماً ، وقيل أربعة عشر يوماً كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير رحمه الله .

قال : ((**فجعل مع هذا يدور على نسائه حتى شق عليه**)) ؛ يعني كان المرض الذي أصابه عليه الصلاة والسلام مرض شديد ، وكان يتحامل على نفسه ويعضُد له الرجلان وإذا انتهت ليلة الواحدة من زوجاته يُحمل إلى بيت الأخرى ، وهذا درس بليغ في العدل بين الزوجات ، فهو عليه الصلاة والسلام وهو في هذه الحال راعى العدل بين زوجاته فكان يُنقل ويُحمل من بيت واحدة إلى بيت الأخرى إقامةً للعدل بين زوجاته ، وكان عليه الصلاة والسلام يرغب ويود أن يمرض في بيت عائشة ، وكان يسأل في كل مرة يقول : متى يوم عائشة ؟ أين بيت عائشة ؟ كان يُعرِّض بذلك وأيضاً صرَّح برغبته ﷺ في أن يُمرض في بيت عائشة .

قال : ((**فاستأذن أن يُمرض في بيت عائشة فأذِنَّ له**)) ؛ أي زوجاته رضي الله عنهن وأرضاهن .

جاء في الصحيح من حديث عائشة قالت : ((كَانَ يَسْأَلُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ يَقُولُ: «أَيْنَ أَنَا غَدًا، أَيْنَ أَنَا غَدًا» يُرِيدُ يَوْمَ عَائِشَةَ، فَأَذِنَ لَهُ أَزْوَاجُهُ يَكُونُ حَيْثُ شَاءَ، فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ حَتَّى مَاتَ عِنْدَهَا)) .

جاء كذلك في الصحيح عنها رضي الله عنها قالت : ((لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ، اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ فِي أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ، تَخُطُّ رِجْلاَهُ فِي الأَرْضِ، بَيْنَ عَبَّاسٍ وَرَجُلٍ آخَرَ ... قَالَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا دَخَلَ بَيْتَهُ وَاشْتَدَّ وَجَعُهُ: «هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ، لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ، لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ» وَأُجْلِسَ فِي مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ تِلْكَ، حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا: «أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ». ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ)) .

قال الإمام بن كثير رحمه الله : ((**فمكث وجعاً اثني عشر يوماً . وقيل : أربعة عشر يوماً . والصديق** ﷺ **يصلي بالناس بنصه** ﷺ **عليه واستثنائه له من جيش أسامة الذي كان قد جهزه** ﷺ **إلى الشام لغزو الروم . فلما حصل الوجع تربصوا** – أي انتظروا – **لينظروا ما يكون من أمره** ﷺ **وقد صلى عليه الصلاة والسلام خلف الصديق جالساً**)) ؛ هذه الفترة التي قيل إنها أربعة عشر يوماً أو أزيَد من ذلك بقليل أو أقل من ذلك بقليل التي كان النبي عليه الصلاة والسلام فيها وجِعاً والوجع مُشتد عليه ما كان عليه الصلاة والسلام

يتمكن من أن يخرج إلى الصلاة ، فأمرهم أن يأمروا أبا بكر الصديق ﷺ أن يصلي بالناس ، وذلك قول الإمام بن كثير رحمه الله : ((**والصديق يصلي بالناس بنصِّه** ﷺ)) أي أنه عليه الصلاة والسلام نصَّ على ذلك . جاء في الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها يقول الأسود : ((قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَذَكَرْنَا المُوَاظَبَةَ عَلَى الصَّلاَةِ وَالتَّعْظِيمَ لَهَا، قَالَتْ: لَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ فَأُذِّنَ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، وَأَعَادَ فَأَعَادُوا لَهُ، فَأَعَادَ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «إِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ»، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ فَصَلَّى ، فَوَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ مِنَ الوَجَعِ، فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ مَكَانَكَ، ثُمَّ أُتِيَ بِهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ)) ؛ جيء به ﷺ تخطان قدماه في الأرض من شدة الوجع وصلى جالساً ، كل ذلك مما يبين مكانة الصلاة العظمى ومنزلة الصلاة العليا .

جاء في بعض روايات هذا الحديث أن عائشة قالت ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام قالت : ((إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْ إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ» فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: مَا كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا)) .

قال ابن كثير رحمه الله : ((**وقُبض** ﷺ **حين اشتد ضحى يوم الاثنين من ربيع الأول**)) ؛ هذا يوم الوفاة : يوم الاثنين من ربيع الأول .

هناك منظر بهيج عجيب ، منظر خلاب عظيم للغاية وهو نظرة النبي عليه الصلاة والسلام نظرة الوداع لصحابته ﷺ ، وهذا منظر حقيقة يأخذ بالنفوس أخذاً عجيباً ، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام في اليوم الذي وافته المنية فيه – كانت وفاته في الضحى يوم الاثنين – والناس صفوف يصلُّون الفجر خلف أبي بكر ﷺ ؛ فتح عليه الصلاة والسلام الستر وأخذ ينظر إلى أصحابه ﷺ نظرة وداع ، وابتسم ﷺ ، لأنه رأى منظراً مبهجاً مفرحاً غاية الفرح

وهو : الناس في المسجد صفوف مجتمعين يؤدون فرض الله ﷻ قائمين بهذه الفريضة العظيمة . جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك ﷺ : ((أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الِاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلَاةِ «كَشَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سِتْرَ الْحُجْرَةِ، فَنَظَرَ إِلَيْنَا، وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَاحِكًا قَالَ: «فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» ، وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَارِجٌ لِلصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ أَنْ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ ، قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْخَى السِّتْرَ . قَالَ: فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ)) .

وهذه النظرة العظيمة ينبغي أن لا تغيب عن بال المسلم المحِب الصادق في محبته لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؛ المحب الصادق للرسول عليه الصلاة والسلام لا يُفْتَقد في جماعة المسلمين ، وهذه النظرة كانت في صلاة الفجر ، وما أكثر ما يُفتقد الناس الآن في صلاة الفجر !! وما أكثر ما يُؤثِر الناس النوم على صلاة الفجر ويسمع المنادي ينادي " حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، الصلاة خير من النوم " ويبقى نائماً على فراشه !! فأين هؤلاء من اللحظات الأخيرة في حياة نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام ؟! أين هؤلاء من النظرة الوداع التي ابتسم ضاحكاً صلوات الله وسلامه عليه ؟ وكان من آخر ما سُمِع منه من وصايا ((الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)) ، فأين المتهاونون بالصلاة والمفرطون فيها والمضيعون لها من هذه اللحظات الأخيرة من حياة نبينا عليه الصلاة والسلام ؟! ألا يذكرون نبيهم عليه الصلاة والسلام يُؤتى به تَخُط قدماه في الأرض من شدة الوجع حتى يقوم في الصف يصلي في آخر حياته ؛ ثم يكون الواحد معافىً صحيحاً لا يشتكي من علة ولا يشتكي من وجع وينادى للصلاة فلا يجيب ولا يلبي النداء !! أين الحب الصادق ؟ وأين الإتباع الصادق لهذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ؟ .

من الحديث في اللّحظات الأخيرة لموته عليه الصلاة والسلام ما ترويه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد علمنا أن موته ﷺ كان في بيتها في حجرتها بين سحرها ونحرها ، ولهذا جُلّ الأخبار المتعلقة بالنزع ولحظات الوفاة الأخيرة كانت من روايتها رضي الله عنها وأرضاها ،

ومما روته من ذلك وهو في الصحيح قالت رضي الله عنها : ((إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ ؛ دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «أَنْ نَعَمْ» فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الماءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ ، يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى» حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ)) .

وجاء عنها رضي الله عنها في الصحيح قالت : ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى» فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ)) .

وفي لحظاته الأخيرة عليه الصلاة والسلام جاءته ابنته فاطمة رضي الله عنها وأرضاها – بل في الدقائق الأخيرة من حياته ﷺ كما تروي ذلك أم المؤمنين عائشة – وكان مجيئها بدعوة منه عليه الصلاة والسلام ، تقول رضي الله عنها : ((دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاطِمَةَ ابْنَتَهُ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهَا فَسَارَّهَا بِشَيْءٍ فَبَكَتْ ، ثُمَّ دَعَاهَا فَسَارَّهَا فَضَحِكَتْ ، فَسَأَلْتُهَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَتْ : سَارَّنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَنِي: أَنَّهُ يُقْبَضُ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَبَكَيْتُ ، ثُمَّ سَارَّنِي فَأَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِهِ أَتْبَعُهُ فَضَحِكْتُ)) .

وجاء في الصحيح من حديث أنس ﷺ ((لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ» ، فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلاَمُ: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ)) .

وهو عليه الصلاة والسلام دُفن في المكان الذي مات فيه ﷺ ، حيث أنه اختُلف حين وفاته أين يُدفن فروى لهم أبو بكر رضي الله عنه حديثاً في ذلك أن الأنبياء يُدفنون حيث ماتوا ، فدُفن عليه الصلاة والسلام تحت الفراش الذي مات عليه ، في الحجرة التي مات فيها ﷺ حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها وعن الصحابة أجمعين.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله : ((**وقُبض ﷺ ضحى يوم الاثنين**)) ؛ يعني حين اشتد الضحى من ذلك اليوم ((**من ربيع الأول فالمشهور أنه الثاني عشر منه ، وقيل مستهله . وقيل: ثانية ، وقيل : غير ذلك**)) .

قال رحمه الله تعالى :

[وقد قال السهيلي – ما زعم أنه لم يسبق إليه – من أنه لا يمكن أن تكون وقفته يوم الجمعة تاسع ذي الحجة ، ثم تكون وفاته يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول بعده ، سواء حُسبت الشهور كاملة أم ناقصة ، أم بعضها كاملاً وبعضها ناقصاً ، وقد حصل له جواب صحيح في غاية الصحة ولله الحمد ، أفردتُه مع غيره من الأجوبة ، وهو أنه إنما وقع بحسب اختلاف رؤية هلال ذي الحجة في مكة والمدينة ، فرآه أهل مكة قبل أولئك بيوم ، وعلى هذا يتم القول المشهور ولله الحمد والمنة . وكان عمره يوم مات ﷺ ثلاثاً وستين سنة على الصحيح ، قالوا : ولها مات أبو بكر وعمر وعلي وعائشة رضي الله عنهم ، ذكره أبو زكريا النووي في تهذيبه وصححه ، وفي بعضه نظر . وقيل : كان ستين ، وقيل : خمساً وستين ، وهذه الأقوال الثلاثة في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما . [

****

قال الإمام بن كثير رحمه الله : ((**وقد قال السهيلي**)) ؛ أي صاحب الروض الأُنُف ، وذكر ذلك في كتابه هذا.

قال : ((**ما زعم أنه لم يُسبق إليه**)) ؛ يعني ذكر قولاً وزعم أنه لم يُسبق إليه .

((**من أنه لا يمكن أن تكون وقفته يوم الجمعة تاسع ذي الحجة ، ثم تكون وفاته يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول بعده ، سواء حُسبت الشهور كاملة أم ناقصة ، أو**

بعضها كاملاً وبعضها ناقصاً)) ؛ هذا استشكال أورده السهيلي على القول المشهور في الوقفة أنها كانت يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة وأنَّ الوفاة في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول على المشهور من أقوال أهل العلم في يوم وفاته عليه الصلاة والسلام ، ومرّ معنا حكاية ابن كثير رحمه الله الخلاف بين أهل العلم في ذلك .

وابن كثير رحمه الله ذكر أن أهل العلم أجابوا على ما أورده السهيلي بأجوبة ، وأنه رحمه الله حصل له جواب ، وأنه أفرد تلك الأجوبة والجواب الذي هو ذكره في جزء أفرده بذلك .

ومُحصل جوابه رحمه الله : ((**أن ذلك بحسب اختلاف رؤية هلال ذي الحجة في مكة والمدينة**)) ؛ يعني فيه فرق يوم بين مكة والمدينة .

((**فرآه أهل مكة قبل أولئك بيوم ؛ وعلى هذا يتم القول المشهور**)) ؛ أي أن النبي عليه الصلاة والسلام كانت وقفته يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة ، ووفاته في اليوم الثاني عشر ويوافق يوم اثنين .

قال : ((**وكان عمره ﷺ يوم مات ثلاثاً وستين سنة على الصحيح**)) ؛ وهذا جاء في الصحيحين من حديث عائشة ، وجاء أيضا في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

((**قالوا : ولها** – أي لهذه السن – **مات أبو بكر**)) ؛ أي وعمره ثلاثا وستين سنة .

((**وعمر**)) ؛ عمره ثلاثا وستين .

((**وعلي**)) ؛ وعمره ثلاثا وستين .

((**وعائشة رضي الله عنها**)) ؛ وعمرها ثلاث وستين .

قال : ((**ذكره أبو زكريا النووي رحمه الله في تهذيبه**)) ؛ أي في كتابه تهذيب الأسماء واللغات وهو كتاب معروف ((**وصححه**)) .

قال الحافظ ابن كثير : ((**وفي بعضه نظر**)) ؛ يعني بعضه لا شك مجزوماً به وفي بعض ذلك نظر . جاء في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : ((قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ)) فهذه صحيحة ، ((**وفي بعضه نظر**)) يعني يُنظر في سن علي حين وفاته وسن عائشة رضي الله عنها حين وفاتها .

قال : ((**وقيل : كان ستين سنة**)) ؛ وأجاب بعض أهل العلم عن هذا القول بأنه لم يُعتبر فيه الكسر ، وهذا أحياناً يحصل ؛ يُغفل الكسر ، بدل أن يقول ثلاث وستين يقول ستين سنة ، فحمل بعض أهل العلم هذا القول على إغفال ذكر الكسر .

((**وقيل : خمساً وستين**)) ؛ وحُمل أيضاً هذا على سنة المولد وسنة الوفاة .

((**وهذه الأقوال الثلاثة** – يعني الستين ، وثلاث وستين ، وخمس وستين – **في صحيح البخاري عن ابن عباس**)) ؛ وبعض أهل العلم جمع بينها الجمع الذي أشرت إليه .

قال رحمه الله تعالى :

[**فاشتدت الرزية بموته ﷺ ، وعظم الخطب وجلَّ الأمر ، وأصيب المسلمون بنبيهم ، وأنكر عمر بن الخطاب ﷺ ذلك وقال : إنه لم يمت ، وإنه سيعود كما عاد موسى لقومه . وماج الناس ، وجاء الصديق المؤيد المنصور ﷺ أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً فأقام الأود وصدع بالحق وخطب الناس وتلا عليهم : {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}** [آل عمران:١٤٤]**، فكأن الناس لم يسمعوها قبل ذلك ، فما من أحد إلا يتلوها**] .

****

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى : ((**فاشتدت الرزية بموته، وعظم الخطب وجلَّ الأمر، وأصيب المسلمون بنبيهم ﷺ**)) ؛ ولا شك أن هذه فاجعة كبرى ومصاب جلل وألم عصيب شهده المسلمون في ذلك اليوم ، وماج الناس وكثير منهم لم يُصدِّق الخبر ولم يتقبل هذا الخبر ، حتى إن عمر ﷺ الملْهَم وهو من هو في مكانته أنكر ذلك وزجر من كان يقول إن النبي عليه الصلاة والسلام قد مات ، وأخذ يخطُب الناس ويُحدِّثهم بأنه لم يمت عليه الصلاة والسلام . وأصبح الناس في نبأ عظيم وفي حادثة مهيلة وشُدِهوا في هذا الأمر ، وعمر قائم يخطب الناس ويُكذِّب هذا الخبر وينفي هذه الدعوة .

قال الإمام ابن كثير : ((**وأنكر عمر بن الخطاب ذلك وقال إنه لم يمت وإنه سيعود كما عاد موسى إلى قومه وماج الناس ، وجاء الصديق المؤيد المنصور أولاً وآخرا وظاهراً**

وباطنا فأقام الأود وصدع بالحق وخطب الناس وتلا عليهم : {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} فكأن الناس لم يسمعوها قبل ذلك ، فما من أحد إلا يتلوها)) ؛ في هذه الأثناء كان أبو بكر ﷺ في بيته فجاء كما في الصحيح : ((أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ المِسْجِدَ ، فَلَمْ يُكَلِّمُ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَتَيَمَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، وَاللَّهِ لاَ يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ ، أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ، فَقَدْ مُتَّهَا»)).

ثم خرج ﷺ ليبين هذا الأمر للناس ، وعمر قائم يخطب ينفي الخبر ويُكذِّبه ، جاء في الصحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ((أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: " أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿الشَّاكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤])) ولما تلاها كأن الصحابة ﷺ يسمعوا هذه الآية لأول مرة في حياتهم ، وكأن هذه الآية لم تُنزَل إلا في ذلك اليوم . قال ابن عباس رضي الله عنهما راوي الحديث : ((وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا)) . أصبحت هذه الآية تتلى في أرجاء المدينة .

وهذا أيضاً فيه فائدة عظيمة وجليلة وهي : أهمية مداواة المصاب بالقرآن ؛ يتلى من الآيات ما يكون فيه الشفاء من المصاب تحقيقاً لقوله ﷻ : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء:٨٢] ، وقوله ﷻ : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءامنوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وهذا أمر يُغفله كثير من الناس ، في أي مصاب يصيب الإنسان ينظر الآيات التي تداوي مصابه وتعالج مشكلته فيتأمل فيها ويقرأها ويتدبرها ويتعقل في معانيها ويرددها في نفسه حتى تكون شفاء له مما يجد وتكون كاشفاً لكربته ومزيلة لهمه وغمه .

فالشاهد أن الناس في المدينة أصبحوا يرددون هذه الآية في كل مكان يتلونها متعقلين ما دلت عليه .

عمر الذي كان قائماً خطيباً ينفي الخبر ويكذِّب الخبر حتى إن أبا بكر ﷺ لما طلب منه السكوت والجلوس والانتظار أبى ؛ لما سمع أبا بكر يخطب هذه الخطبة ويتلو هذه الآية قال : «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ» .

قال رحمه الله :

[ثم ذهب المسلمون به إلى سقيفه بني ساعدة وقد اجتمعوا على إمرة سعد بن عبادة فردَّهم عن ذلك وصدَّهم ، وأشار عليهم بعمر بن الخطاب أو بأبي عبيدة بن الجراح ، فأبيا ذلك والمسلمون ، وأبى الله ذلك أيضاً ، فبايعه المسلمون ﷺ هناك ، ثم جاء فبايعه الناس البيعة العامة على المنبر] .

****

قال رحمه الله : ((**ثم ذهب المسلمون به**)) ؛ أي بأبي بكر الصديق بعد أن تحقق النبأ وتؤُكد من الخبر وخطب ﷺ الخطبة التي أبان فيها الأمر وأصبح الناس على إثر ذلك على يقين من نبأ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فذهب المسلمون بأبي بكر ((**إلى سقيفه بني ساعدة وقد اجتمعوا على إمرة سعد بن عبادة**)) تأمير سعد ابن عبادة ﷺ.

((**فردَّهم عن ذلك** – أي أبو بكر – **وصدَّهم ، وأشار عليهم بعمر بن الخطاب** – أن يؤمِّروا عمر بن الخطاب– **أو عبيدة ابن الجراح ، فأبيا ذلك والمسلمون ، وأبى الله ذلك أيضاً ، فبايعه المسلمون ﷺ هناك، ثم جاء فبايعه الناس البيعة العامة على المنبر**)) ؛ وتمت بيعة أبي بكر ﷺ في لحظات يسيرة وبإجماع من الصحابة واتفاق كلمةٍ منهم ﷺ ، ولما تمت البيعة واستتب الأمر وأصبح أبو بكر ﷺ هو الخليفة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه شرعوا في جهاز رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن كثير رحمه الله :

[ثم شرعوا في جهاز رسول الله ﷺ ، فغسلوه في قميصه ، وكان الذي تولى ذلك عمه العباس ، وابنه قثم، وعلي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، وشقران ـ مولياه ـ يصبان الماء ، وساعد في ذلك أوس بن خولي الأنصاري البدري ، رضي الله عنهم أجمعين . وكفَّنوه في ثلاثة أثواب قطن سَحولية بيض ليس فيها قميص ولا عمامة . وصلُّوا عليه أفذاذاً واحداً واحداً ، لحديث جاء في ذلك رواه البزار ـ والله أعلم بصحته ـ أنه ﷺ أمرهم بذلك . وقال الشافعي : إنما صلّوا عليه مرة بعد مرة أفذاذاً لعظم قدره ، ولتنافسهم أن يؤمهم عليه أحد. قال الحاكم أبو أحمد : فكان أولهم عليه صلاة العباس عمه ، ثم بنو هاشم ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم سائر الناس ، فلما فرغ الرجال دخل الصبيان ثم النساء . ودُفن ﷺ يوم الثلاثاء ، وقيل ليلة الأربعاء سحراً ، في الموضع الذي توفي فيه من حجرة عائشة ، لحديث رواه الترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه ، وهذا هو المتواتر تواتراً ضرورياً معلوماً من الدين الذي هو اليوم داخل مسجد المدينة]

****

قال الإمام بن كثير رحمه الله تعالى : ((**ثم شرعوا في جهاز رسول الله ﷺ ، فغسلوه في قميصه ، وكان الذي تولى ذلك عمه العباس ، وابنه قثم ، وعلي بن أبي طالب ، وأسامة بن زيد ، وشقران ـ مولياه ـ يصبان الماء، وساعد في ذلك أوس ابن خولي الأنصاري البدري**)) ؛ وهذا الصحابي اسمه أوس وهو من الخزرج، ولعل هذا فيه تنبيه لما أكرم الله سبحانه وتعالى هذين الحيين من ألفة ومحبة وارتباط عظيم . رضي الله عنهم أجمعين .

قال : ((**وكفنوه في ثلاثة أثواب قطن سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة**)) ؛ سحولية تُنسب إلى موضع في اليمن تُنسج فيه الثياب يُقال له سحول ، والثياب التي تُنسج هناك يُقال لها سحولية ، وهي ثياب من القطن كما نص على ذلك المصنف ولونها أبيض وكان عليه الصلاة والسلام أوصى بذلك قال : ((عليكم بالثياب البيض وكفنوا فيها موتاكم)).

قال : ((**وصلَّوا عليه أفذاذاً واحداً واحداً**)) ؛ يعني يدخل بحسب ما تحتمله الغرفة من عدد – لا يزيد على العشرة – ويصلُّون أفذاذاً كل يصلي وحده دون أن يؤمّهم أحداً منهم .

يقول ابن كثير : ((**لحديث جاء في ذلك رواه البزار . والله أعلم بصحته . أنه ﷺ أمرهم بذلك**)) ؛ قال ابن كثير رحمه الله في كتابه البداية : " وفي صحته نظر " أي الحديث . وقال : " وهذا الصنيع وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه أمر مجمَع عليه لا خلاف فيه " . ولذلك حكمة وسبب الله ﷻ أعلم به ، أما الحديث الذي يروى ففي صحته نظر كما يقول ذلكم الحافظ ابن كثير رحمه الله .

قال : ((**وقال الشافعي : إنما صلَّوا عليه مرة بعد مرة أفذاذاً لعظم قدره ولتنافسهم أن يؤمهم عليه أحد**))؛ هذا من تلمُّس الحكَم والأسباب في ذلك ، فالله تبارك وتعالى أعلم بذلك .

((**قال الحاكم أبو أحمد فكان أولهم عليه صلاة العباس عمه ، ثم بنو هاشم ، ثم المهاجرون ، ثم الأنصار، ثم سائر الناس ، فلما فرغ الرجال دخل الصبيان ثم النساء**)) .

قال : ((**ودفن ﷺ يوم الثلاثاء ، وقيل يوم الأربعاء سحراً**)) ؛ أي وقت السحر قبيل صلاة الفجر .

((**في الموضع الذي توفي فيه من حجرة عائشة رضي الله عنها**)) ؛ فالفراش الذي كان عليه الصلاة والسلام عليه جالسا متكأ على زوجه عائشة رضي الله عنها بين سحرها ونحرها طُوِيَ وحُفر تحته ودُفن ﷺ في ذلك الموضع ، لأنه الموضع الذي مات فيه ﷺ .

قال : ((**لحديث رواه الترمذي عن أبي بكر وفيه أن الأنبياء يدفنون حيث ماتوا**)) .

قال : ((**وهذا هو المتواتر تواتراً ضرورياً معلوماً من الدين الذي هو اليوم داخل مسجد المدينة**)) ؛ ومن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام حين دُفن لم يُدفن داخل المسجد وإنما دُفن في حجرة عائشة وهي خارج المسجد وليست داخله ، وكانت عائشة رضي الله عنها تحيض فيها ، وكان عليه الصلاة والسلام يأتيها فيها ؛ ودفْنه عليه الصلاة والسلام في هذا الموضع الذي هو خارج المسجد بنص شرعي ودليل منقول عنه ﷺ نقَلَه أبو بكر ﷺ وهو: ((أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يدفنون حيث ماتوا)) ؛ فكانت وفاته في حجرة عائشة فدُفن في حجرتها والحجرة خارج المسجد ، ولما احتيج فيما بعد إلى توسعة المسجد وُسِّع من النواحي كلها الأمامية والغربية والشمالية دون الناحية الشرقية التي فيها الحجرات في زمن عمر وفي زمن عثمان رضي الله عنهما ، ثم في أواخر عهد الصحابة ﷺ في خلافة بني أمية حصل

للمسجد توسعة شملت الناحية الشرقية من المسجد وأحيطت الحجرة بجدرات عديدة وبعض هذه الجدرات وُضعت على شكل مثلث تلتقي زاويته في الناحية الشمالية وكل ذلك حرصاً على إبعاد الناس عن التعلقات الباطلة التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان .

وقبل وفاته ﷺ بأيام – خمسة أيام تحديداً – وفي النزع كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها كان عليه الصلاة والسلام يرفع غطاءً على وجهه ﷺ وهو يقول : ((لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبياءهم مساجد . يُحذِّر مما صنعوا)) ؛ يعني قال ﷺ ذلك في لحظاته الأخيرة وقاله في النزع يحذر الأمة من هذا الصنيع وينهاهم عن هذا العمل الخطير الذي كان عليه اليهود والنصارى .

وأخذ أهل العلم من ذلك فائدة عظيمة ومهمة في باب التوحيد والتعبد لله ﷻ : أنه لا يحل أن يُدفن الميت مهما كانت منزلته داخل مسجد ، ولا يحل أن يُبنى المسجد على القبور ، وإذا كان المسجد بهذه الصفة لا يُصلى فيه ، للَّعن الثابت عنه صلوات الله وسلامه عليه ، وأما ما يخص هذا المسجد المبارك فإن حكمه واضح وفضيلته معروفة وأيضا مكانته باقية وثابتة وهو قول نبينا عليه الصلاة والسلام : ((صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا المسْجِدَ الحَرَامَ)) .

والنبي عليه الصلاة والسلام في لحظاته الأخيرة نُقلت عنه وصايا عظيمة هي وصايا مودع ينبغي لكل مسلم أن يأخذها موضع العناية والاهتمام ، وأعظم وصيتين في هذا الباب :

- الوصية بالتوحيد والعناية به ؛ تستفاد من قوله : ((لعنة الله على اليهود والنصارى)) إلى آخر الحديث .
- والوصية بالصلاة التي هي أعظم أركان الدين بعد الشهادتين ؛ حيث كان يقول : ((الصلاة الصلاة)) .

ومرَّت معنا تلك الابتسامة العظيمة ، ابتسامة الفرح والسرور والرضا منه ﷺ بحال المسلمين يودعهم وهم مجتمعين في المساجد محافظين على هذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة التي مات عليه الصلاة والسلام وهو عن أصحابه راضٍ وهم صفوف يؤدون هذه الصلاة جماعة . أما من لا يحافظ على الصلاة في جماعة المسلمين لا نصيب له من رضا النبي ﷺ ، بل جاء في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ

بِحَطَبٍ، فَيُحْطَبَ، ثُمَّ آمُرَ بِالصَّلاَةِ، فَيُؤَذَّنَ لَهَا، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ، ثُمَّ أُخَالِفَ إِلَى رِجَالٍ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ)) فأين المتخلف عن الجماعة من أن يكون من أهل الرضا !!

.

فالنبي عليه الصلاة والسلام مات عن صحابته ﷺ وهو عنهم راض وابتسم تلك الابتسامة الوضيئة العظيمة التي فيها ظهور بشره وسروره وفرحه صلوات الله وسلامه عليه بهذا المنظر العظيم البهيج ؛ مما يؤكد على كل مسلم أن تعظم عنايته بهذه الصلاة جماعةً خمس مرات في اليوم والليلة كما أمره الله ﷻ بذلك في بيوت الله التي أذن الله ﷻ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه.